التفسير البسيط للقرآن الكريم

إعداد
د. حسن محمد باجودة
أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

الجزء السابع عشر

منشورات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
الأمانة العامة لمسابقة القرآن الكريم

وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

باجودة ، حسن محمد

التفسير البسيط للقرآن الكريم

.. ص، .. سم

ردمك : ٨-٢٨٧-٢٩-٩٩٦٠

١ - القرآن ـ التفسير المأثور أ - العنوان

ديوي ٢٢٧٠٣٢ ٢٠/١٨٢٠

رقم الإيداع : ٢٠/١٨٢٠

ردمك : ٨-٢٨٧-٢٩-٩٩٦٠

التفسير البسيط للقرآن الكريم

إعداد

د. حسن محمد باجودة

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

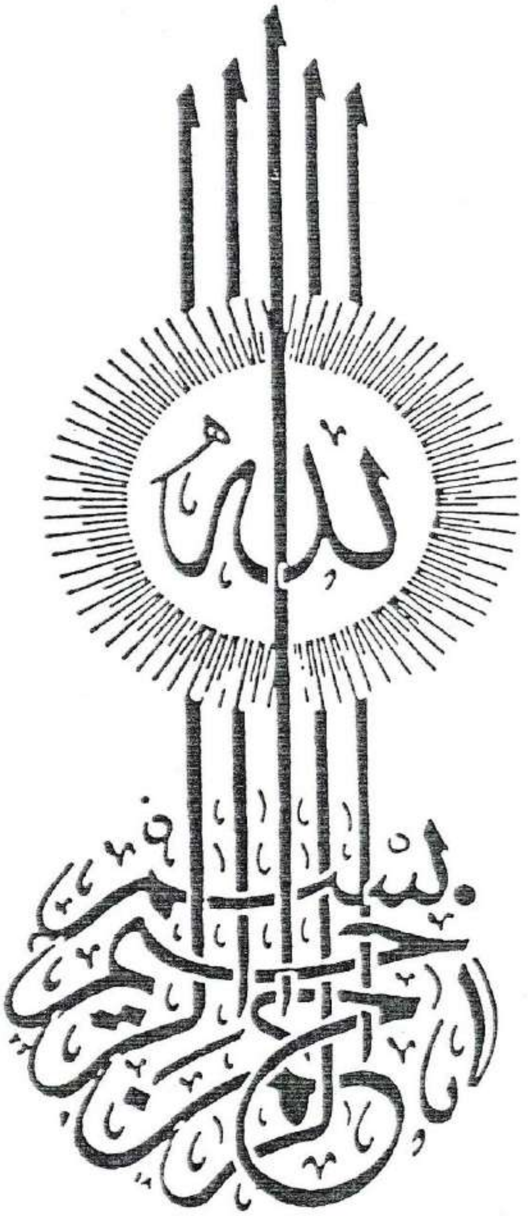
الله
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد.

فهذا تفسيرٌ مبسّطٌ للجزء السّابع عشر من القرآن الكريم، يغطّي سورة الأنبياء وسورة الحجّ. وقد قمت بعمله على غرار تفسير الأجزاء السّتّة عشر السّابقة. إنّ هذا الجزء السّابع عشر، هو ميدان التّفسير للمتسابقين، في الحقل الأوّل، الّذي يشمل حفظ القرآن الكريم كاملاً مع التّفسير، من بين الحقول الخمسة للمسابقة، في المسابقة السنوية الدوليّة العشرين، التي عقدتها وزارة الشّئون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد برئاسة معالي وزيرها السابق الأستاذ الدّكتور عبدالله بن عبدالمحسن التّركي في أثناء الفترة من ١٤/ ٧/ ١٤١٩هـ حتّى ٢٥/ ٧/ ١٤١٩هـ الموافق ٣/ ١١/ ١٩٩٨م ١٤/ ١١/ ١٩٩٨م وكأنّ هذا التّفسير تتويجٌ للأعمال الّتي تمّت في مجال التّفسير، في أثناء المسابقة العشرين. علماً بأنّ ميدان المتسابقين في المسابقة الحادية والعشرين، إن شاء الله تعالى، هو الجزء الثّامن عشر من القرآن الكريم.

وأنتهز هذه المناسبة المباركة، كي أوجّه خالص شكري وتقديري لوزارة الشّئون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، وعلى رأسها معالي الوزير، على الفرصة الّتي منحني إيّاها، بأن أقوم بعمل هذا التّفسير، الّذي حرصت فيه كما حرصت في سابقيه، على أمور أهمّها ثلاثة:

١ ـ أن أبيّن مظاهر التّرابط بين الآيات الكريمات والموضوعات.

٢ـ أن أشير إلى الّدروس الّتي يمكن أن تستفاد.

٣ـ أن أنسب الأقوال كلّها إلى مصادرها.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، إنّه سميعٌ مجيب.

﴿ربّنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا. ربّنا ولاتَحْمِلْ علينا إصْراً كما حملته على الّذين من قبلنا. ربّنا ولاتحمّلنا ما لاطاقة لنا به. واعفُ عنّا واغفر لنا وارحمنا. أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾.

﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون. وسلامٌ على المرسلين. والحمد لله ربّ العالمين﴾.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله ربّ العالمين.

مكّة المكرّمة

صبيحة يوم الجمعة ١١/ ٥/ ١٤١٨هـ

الموافق ١٢/ ٩/ ١٩٩٧م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه

د. حسن محمّد باجودة

أستاذ الدّراسات القرآنية البيانيّة

وعميد كلّية اللّغة العربيّة

جامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

أولاً
سورة الأنبياء

تَرتِيبُها ٢١ — سُورَةُ الأَنبِيَاءِ — آيَاتُها ١١٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾
مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ
يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ
تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ
ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ
﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ
﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ
ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا
لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ
ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾
لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾
لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ
دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا
ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا
لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ
عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ
﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ
﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ
ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ
وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ
بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم
بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ
وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ
﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ
جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا
مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ
رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ
يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ
ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ
وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ
ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ
ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ
هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ
ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ
لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا
هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ
بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ
ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ
لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ
وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى
ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا
مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ
لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ
ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ
﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ
ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ
مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا
بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ
أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾
قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟
أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾
قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ
عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ
هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ
هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ
أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا
يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ
فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾
وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ
وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ
ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا
عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ
ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ
فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ
وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ
نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾
فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا
مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾
وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ
فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ
إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾

وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا
دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ
نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾
فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ
وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾
وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ
﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ
فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي
كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ
مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ
إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ
﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا
لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ
وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا
وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ
أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾
وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾
فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ
لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ
أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ
يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾
وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ
هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾
لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ
خَٰلِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ
(١٠٣) يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا
بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ
(١٠٤) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ
يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا
لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ (١٠٦) وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ
(١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ
فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ
عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩)
إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ
(١١٠) وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَٰلَ
رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢)

بين يدي التّفسير

(١)

(في هذا الكتاب العزيز شرفكم أيّها الناس فآمنوا به وبالرّسول الكريم قبل حلول العذاب)

الآيات (١ ـ ١٥)

سورة الأنبياء المكيّة الكريمة التي نزلت قبل الهجرة، تقرّر ابتداءً أنّ النّاس قد اقترب حسابهم يوم القيامة وهم في غفلتهم معرضون عن الحقّ. وتقرّر بعد ذلك أنّهم ما يأتيهم من قرآنٍ كريمٍ حديث عهدٍ بالسّماء موحىً به من ربّ العالمين إلاّ استمعوه وهم يلعبون. غافلةً قلوبهم، وأسرّ الّذين ظلموا النّجوى فيما فيهم وقالوا لبعضهم : هل محمّدٌ إلاّ بشرٌ مثلكم، وسألوا في إنكار: أتعلمون أنّ محمّداً ساحرٌ ثمّ تأتون مثله السّحر باتّباعه وأنتم على بيّنة من أمره. وتجاه اتّهام القرآن الكريم بأنّه ضربٌ من السّحر يجيب المصطفى ﷺ بأنّ ربّه عزّ وجلّ الّذي خلقه وربّاه بنعمه والّذي أنزل عليه الذّكر الحكيم ، يعلم حقيقة كلّ قولٍ في السّماء والأرض، وفي مقدّمة كلّ قولٍ هذا القرآن المجيد. إنّه عزّ وجلّ هو السميع لكلّ قول ، العليم بكلّ نيّة وفعلٍ. إنّ كفّار مكّة لم يؤمنوا بالقرآن الكريم ولم يقفوا عند اتّهامه بكونه ضرباً من السّحر فقط، بل قالوا عنه كذلك هو أخلاط أحلام، بل تقوّله محمّد، بل محمّد شاعرٌ والقرآن ضربٌ من الشّعر ثمّ هم يريدون من محمّد أيضاً أن يأتيهم بآيةٍ محسوسةٍ غير القرآن الكريم كالآيات الّتي أُرْسِل بها المرسلون السّابقون كصالحٍ وموسى وعيسى عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه. وهكذا يتبيّن أنّ كفّار مكّة لا يستقرّون على رأيٍ بسبب قوّة الحقّ ووضوح البرهان وانهزامهم أمام معجزة القرآن الكريم وعظمة خير الأنام ﷺ.

ولمّا كان الكافرون في كلّ زمانٍ ومكانٍ متشابهين في الصّفات، وكان تكذيب المرسلين دَيْدَنَهُمْ ولم تؤمن أمّةٌ واحدةٌ سابقةٌ فإن السّياق يسأل في إنكار: أيؤمن

كفّار مكّة وَحْدَهم بعد أن أصرّت كلّ الأمم السّابقة على الكفر بعد تحقّق الآيات الّتي اقترحوا.

ولمّا كان كفّار مكّة قد استكثروا الرّسالة على البشر محمّد ﷺ وكان كلّ المرسلين السّابقين من البشر وليسوا من الملائكة فإنّ السياق ينبّه الى هذه الحقيقة ويقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى أرسل كل المرسلين السابقين رجالاً يوحى عز وجل إليهم، وأنّ في إمكان كفّار مكّة، إن كانوا لا يعلمون هذه الحقيقة، أن يسألوا أهل العلم بالتّوراة والإنجيل من اليهود والنّصارى. والله تعالى ما جعل أولئك المرسلين أجساداً لا تأكل الطّعام بل أجساداً تأكل الطّعام، وما جعلهم الله تعالى خالدين بل يموتون كسائر البشر. وحينما أصرّت الأمم على تكذيب الرسل بعد تحقق المعجزات الحسّيّة التي اقترحوها صدق الله تعالى وعده فأنجى الله تعالى المرسلين ومن شاء من المؤمنين وأهلك المسرفين المشركين.

إنّ على كفّار مكّة وسائر النّاس أن يتّبعوا النّور المبين الّذي أنزله الله تعالى على المصطفى ﷺ كتاباً كريماً فيه عزّهم وشرفهم ومجدهم وسؤددهم. هلاّ استعمل النّاس عقولهم استعمالاً صحيحاً فَقَدَروا القرآن الكريم حقّ قدره وقد أقنع كلّ عقلٍ بفصوص حكمه وأشبع كلّ نفسٍ بلذيذ جرسه.

وكم من قريةٍ ظالمٍ أهلُها أهلكها الله تعالى وأوجد بعدهم آخرين يخلفونهم ليعلم عزّ وجلّ علمَ ظهورٍ كيف يعملون. إنّ أولئك الظالمين أجمعين حينما أحسّوا عذاب الله تعالى إذا هم من مساكنهم يهربون. وعلى سبيل الاستهزاء تقول لهم ملائكة العذاب : لا تهربوا وارجعوا إلى النّعيم الّذي تقلّبتم فيه والمساكن الّتي استمتعتم بها لعلّ المحتاجين يسألونكم تارةً أخرى شيئاً من دنياكم. وتجاه الهلاك الّذي تحقّق لا يملك أولئك الظّالمون إلاّ النّداء بالويل والثّبور والاعتراف بعد فوات الأوان بأنّهم كانوا ظالمين. إنّ كلّ تلك الأقوال غير النّافعة يظلّون يردّدونها حتّى يستأصل عزّ وجلّ شأفتهم كالزّرع المحصود، ويبيدهم فيصيروا كالنّار الّتي خمدت والجمرة الّتي انطفأت.

(٢)

(الله تعالى خالق السّماوات والأرض، وكلّ من فيهما خَلْقُه فاعبدوه)

الآيات (١٦ ـ ٢٩)

إذا كان السّياق قد تحدّث من ذى قبل عن معجزة الإسلام الكبرى القرآن الكريم، وعن السّراج المنير ﷺ ووجوب الإيمان بهما وإلاّ كان أخذ الله تعالى الظّالمين بالعذاب شديداً وأكيداً، فإنّ السّياق يقرّر هنا أنّ الله تعالى هو خالق السّماوات والأرض ومن فيهما لذا ينبغي إفراده عزّ وجلّ بالعبادة وحده لا شريك له. إنّ السّياق يقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى ما خلق السّماوات والأرض بقصد اللّعب والعبث إنّما خلقهما بالحقّ لذا كان الخلق مسئولين عمّا يأتون من أقوالٍ وأفعال، وكان ثمّة ثوابٌ وعقابٌ وجنّةٌ ونار. إنّ ربّ العزّة والجلالّ لو أراد أن يتّخذ لهواً واستمتاعاً بالزّوجة والولد ومن إليهما لاتّخذه عزّ وجلّ ممّن عنده من الملائكة والحور ولكنّه عزّ وجلّ لم يرد فلم يفعل. إنّ الّذي أراده عزّ وجلّ ففعله هو أن يجيء الحقّ ويزهق الباطل. وها هو ذا ربّ العزّة والجلال يرمى الباطل على رأسه بالحقّ فيكسر رأسه ويهشم دماغه فإذا الباطل هالك. إنّكم أيّها المصرّون على شرككم لكم الويل والهلاك ممّا تفترون على الله تعالى من كذب. إنّ لله تعالى كلّ من في السّماوات والأرض خَلْقاً ومِلكاً وعبيدا. وإنّ من عنده عزّ وجلّ من الملائكة الأطهار الّذين عبدهم بعض المشركين مع الله تعالى، لا يستكبرون عن عبادته عزّ وجلّ ولا يقصرّون في العبادة. إنّهم يسبّحون اللّيل والنّهار لا يتعبون ولا يسأمون.

أمّ أنّ المشركين اتّخذوا من حجارة الأرض ومعادنها وما إلى ذلك آلهةً لأنّها تحي الموتى وتبعثهم من قبورهم! يكفي أنّها جميعها مخلوقةٌ لله كي يتأكد سفه

عابديها. ثمّ إنّ هذا النّظام البديع لكلّ هذا الملكوت يدلّ على الإله الواحد، لأنّه لو كان في السّماوات والأرض آلهةٌ سوى الله تعالى لفسدتا، فتنزيهاً لله تعالى ربّ العرش العظيم عمّا يفترى المشركون من كذبٍ على الله تعالى. ولأنّ الله فوق كلّ شيء وليس كمثله شيء وهو السّميع البصير، هو عزّ وجلّ لا يُسْأل عمّا يَفْعَل في حين يَسْأل عزّ وجلّ كلَّ من سواه ويحاسبه ويجازيه.

أم أنّ المشركين اتّخذوا من دونه عزّ وجلّ آلهةً لأنّ لديهم أثارَةً من علم وبقيّةً من حجّة على شركهم فليأتوا ببرهانهم إن كانوا صادقين في زعمهم، فهذا القرآن الكريم الّذى خص الله تعالى به أمّة محمّد ﷺ وتلك الكتب السّماويّة السّابقة تدعو كلّها إلى إفراد الله تعالى بالعبادة. الحقيقة أنّ أكثر القوم لا يعلمون الحقّ فهم معرضون عنه إلى الباطل. وكما أكّدت الكتب السّماويّة كلّها قضيّة التّوحيد أكّد المرسلون. إنّ الله تعالى ما أرسل من رسولٍ حتّى خاتمهم وأشرفهم محمّد بن عبدالله ﷺ إلاّ أوحى عزّ وجلّ إليه أنّه لا إله إلاّ الله فاعبدوني وحدي لا شريك لي.

وهنالك فريقٌ من المشركين قد زعم أنّ الله تعالى اتّخذ ولداً وأنّ الملائكة بنات الله تعالى. ويبادر السّياق إلى تنزيه الله تعالى ممّا ألحقه به الظّالمون، ويقرّر أنّ الملائكة عباد الله تعالى مكرمون عنده عزّ وجلّ. إنّهم لا يقولون شيئاً إلاّ بإذنه ولا يفعلون شيئاً إلاّ بأمره عزّ وجلّ. إن الله تعالى يعلم ما سوف يأتون به من أقوالٍ وأفعال وما سبق أن أتوه من أقوالٍ وأفعال، ولا يشفعون إلا لمن رضي الله تعالى عنه فقال في الدنيا: لا إله إلاّ الله، وهم من خشيته جلّ وعلا خائفون وَجِلون. إنّ الملائكة لا يعصون الله تعالى ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لذا لا يقول واحدٌ منهم إنّه إلهٌ من دون الله تعالى، ولو فُرِض، جَدَلاً، أنّ واحداً منهم قال ذلك فإنّ الله سبحانه وتعالى يجزيه جهنّم. إنّ في مثل هذه الطّريقة يجزى الله تعالى المشركين الّذين ظلموا العبادة فوضعوها في غير مكانها الصّحيح.

(٣)

(رغم آيات الله تعالى الكُثْر في السّماوات والأرض يصرّ الكافرون على كفرهم واستهزائهم والإقبال على الدّنيا والإدبار عن الاخرة)

الآيات (٣٠ ـ ٤٧)

تتحدّث آيات هذا القسم في بعض الخطوط الدّقيقة المتعلّقة بآيات الله تعالى الكونيّة والمعنويّة . إنّ السّياق يسأل الّذين كفروا في إنكار : أعمُوا ولم يعلموا أنّ السّماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقهما الله تعالى بالمطر والّنبات، وأنّ الله جعل من الماء كلّ شيءٍ حيّ كي يؤمنوا. وكذلك جعل الله تعالى في الأرض جبالاً راسيةً لئلاّ تتحرّك بمَن عليها، وجعل فيها مسالك واسعةً سهلة العبور بين الجبال لعلّهم يهتدون في أسفارهم إلى غاياتهم، وجعل السّماء سقفاً للأرض محفوظاً من السّقوط ومن استراق الشّياطين السّمع، والعجيب أنّ المشركين معرضون عن كلّ هذه الآيات. والله تعالى وحده لا شريك له هو الّذي خلق الّليل وجعله سكنا، وخلق الّنهار وجعله معاشاً، وخلق الشّمس وجعلها ضياءً، وخلق القمر وجعله نوراً، وجعل كلاًّ منها يسبح في مداره ويدور في فلكه.

ويتحوّل السّياق إلى الحديث في بعض الخطوط المعنويّة الدّقيقة بعد الحديث في بعض الخطوط المادّية الدّقيقة . إنّ المشركين الّذين يتربّصون بالمصطفى ﷺ ريب المنون يقال ردّاً عليهم إنّ الله سبحانه وتعالى ما جعل لأيّ بشر قبل محمّد ﷺ الخلد فهل إذا مات محمّد ﷺ يستطيع المشركون أن يخلدوا؟ والجواب معروفٌ بطبيعة الحال ومنصوصٌ عليه فكلّ نفسٍ ذائقة الموت، فعلى كلّ إنسانٍ أن يعلم أنّ الله تعالى يبتليه بكلٍّ من الشّرّ كي يصبر وبالخير كي يشكر وأن يعملً ليوم القيامة الّذي يرجع فيه الخلائق إلى الله تعالى. وإنّ المشركين يستعملون كذلك سلاح الاستهزاء فإنهم إذا رأوا المصطفى ﷺ ما يتّخذونه إلاّ سخريةً ويقولون متعجّبين

مستهزئين أهذا هو الّذي يذكر آلهتكم بسوء ويعيبها! إنّ المشركين متحمّسون في الدّفاع عن الأصنام ويكفرون ما للرّحمن الرّحيم من حقٍّ عليهم كفاء نعمه العظيمة عليهم وفي مقدّمتها إنزال الذّكر الحكيم وإرسال خير الأنام ﷺ بدين الإسلام. وكفّار مكّة يمثّلون بعواطفهم الجامحة وأهوائهم المتقلّبة جنس الإنسان الّذي خلقه الله تعالى من عجل وفُطر على العجلة. وتتجلّى عواطف الكافرين أشدّ جموحاً في عدم استقرارهم على صفة واحدة يصفون بها المصطفى ﷺ والقرآن الكريم وفي طلب العديد من الآيات المحسوسة بدلاً من القرآن الكريم. ويهدّدهم السّياق بأنّ الله تعالى سيريهم آياته الدّالة على عظيم قدرته وأليم أخذه فعليهم ألاّ يستعجلوا الآيات، وعليهم ألاّ يستعجلوا العذاب الّذي وعدهم به المصطفى ﷺ وألاّ يستهزئوا به فإنّه آتٍ لا محالة إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحا. إنّهم لو يعلمون حين لا يدفعون نار جهنّم عن وجوههم وظهورهم ولا هم ينصرون لما استهزأوا باستعجال العذاب. إن السّاعة تأتيهم بغتةً فتوقعهم في أشدّ الحيْرة فلا يستطيعون ردّها ولا هم يمهلون لتوبةٍ أو معذرة.

وبقصد تسلية المصطفى ﷺ يخاطبه السّياق ويقول له في أسلوب التّوكيد إنّه قد استهزئ برسلٍ من قبلك كما استهزئ بك يا محمّد فحلّ بالّذين سخروا منهم العذاب الّذي كانوا به يستهزئون. ولمّا كان ربّ العزّة هو الّذي يمهل كفّار مكّة وغيرهم من المشركين ويكلؤهم بعين رعايته ليلاً ونهاراً فمن الّذي يرعاهم إذا خذلهم الرّحمن ومن الّذي يكرمهم إذا أهانهم الرّحمن ومن الّذي يصرف عنهم العذاب إذا كتبه عليهم الرّحمن؟ لا أحد. والحقيقة أنّ الكافرين معرضون عن ذكر ربّهم عزّ وجلّ ومواعظه الّتي اشتمل عليها الذّكر الحكيم في المقام الأوّل.

أمْ أنّ كفّار مكّة لهم آلهةٌ سوى الله تعالى تمنع عنهم العذاب. الحقيقة أنّ تلك الآلهة لا تستطيع نصر أنفسها وأنّ الكافرين محرومون من كلّ مظاهر الخير والفضل من الله تعالى الّتي يخصّ بها عباده الأبرار. والحقيقة كذلك أنّ الكافرين قد متّعهم الله تعالى هم وآباءهم في هذه الحياة الدّنيا حتّى طال عليهم العمر فنسوا

أنّ هنالك آخرة وحساباً وجزاءً. والعجيب أنّهم يأملون في الانتصار على المصطفى ﷺ والمؤمنين على الرّغم من أنّهم يرون أرض الكفر وقد نقصت أطرافها واستحوذ عليها المؤمنون. ولا شكّ أنّهم هم المغلوبون. ولمّا كانت مهمة المصطفى ﷺ تقف عند البلاغ فإنّه عليه الصّلاة يؤمر بأن يقول لهم بأن مهمّتي تقف عند إنذاركم بالوحي والنّصح في إبلاغكم. أمّا الكافرون المنذرون فإنهم لإصرارهم على عدم السمع، وربّما المجرّد، فإنّهم بمثابة الصّمّ الّذين لا يسمعون الدّعاء أصلا.

ولمّا كان المشركون إنّما يجحدون رسالة محمّد ﷺ بألسنتهم في الوقت الّذي تستيقن أنفسهم صدقه عليه الصّلاة والسّلام فإنهم إن مسّتهم لفحةٌ من عذاب الله تعالى يقولون يا ويلنا إنّا كنّا ظالمين ونستحقّ العذاب والهلاك. ولمّا كان الاعتراف بعد فوات الأوان لا ينفعهم وكان العذاب في الدّنيا موصولاً بعذاب الآخرة فإنّ آخر آيات القسم تشير إلى يوم القيامة الّذي يضع الله تعالى فيه الموازين العدل فلا تُظْلم نفسٌ واحدةٌ شيئاً بحذف حسنة أو إضافة سيّئة. وإن كان العمل زنة حبّة من خردل فإنّ الله تعالى يأتي بتلك الحَبّة ويحاسب عليها وكفى بالله تعالى محصياً ومحاسباً ومجازياً.

(٤)

(يقصّ الله تعالى على محمّد صلّى الله عليه وسلّم من أنباء الرّسل ما يثبّت به فؤاده وأفئدة المؤمنين)

الآيات (٤٨ ـ ٩١)

بقصد تسلية المصطفى ﷺ وتثبيت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام وأفئدة الفئة المؤمنة القليلة العدد في تلك الفترة المكّيّة المبكّرة من تاريخ الدّعوة الإسلامية يتحوّل الحديث إلى كوكبةٍ من المصطفين الأخيار. ويبدأ الحديث بموسى وهارون عليهما

السّلام. وما أكثر المواطن في القرآن الكريم الّتي تمّ فيها مثل هذا التّحوّل إلى موسى وهارون عليهما السّلام بسبب أوجه الشّبه الكثيرة بين ملابسات الدّعوة الّتي مرّ بها كلٌّ من موسى ومحمّد عليهما الصّلاة والسّلام، خاصةً وأنّ كلاً من الرّسولين الكريمين قد آتاه الله تعالى كتاباً سماويّا. هذا إلى أنّ كلاً منهما من أولى العزم الخمسة من الرّسل. والمعروف أنّ أولى العزم من الرّسل يضرب بهم المثلُ في الصّبر. ثمّ يتحوّل الحديث إلى إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء وإلى ابن أخيه لوطٍ عليه السّلام. والمعروف أنّ كلاً منهما قد نجّاه الله تعالى بالهجرة من العراق إلى الشّام الأرض الّتي بارك الله تعالى فيها دينيّاً ودنيويّا. وهكذا يجمع السّياق في نسقٍ بين إبراهيم ولوطٍ عليهما السّلام، كما جمع مِنْ قَبْلُ في نسق بين موسى وهارون عليهما السّلام. هذا إلى الحديث عن إسحاق وابنه يعقوب عليهما السّلامُ اللّذين وهبهما الله تعالى لإبراهيم عليه السّلام كرماً منه عزّ وجلّ وفضلاً، وجعلهما نبيّين كريمين في حياة إبراهيم عليه السّلام. ويتحوّل السّياق إلى نوحٍ عليه السّلام أوّل الرّسل والأب الثّاني للبشريّة. وكان الحديث عن نوحٍ عليه السّلام منفرداً لأنّه أوّل رسول، مع الإيماء إلى الكرب العظيم الّذي كان فيه عليه السّلام والصّبر الكبير الّذي بذله. ثمّ يتحوّل الحديث إلى داود وسليمان عليهما السّلام. ثم يتحوّل الحديث إلى مجموعةٍ من النّبيّين الكرام الّذين يوصفون بالصّبر ولهم علاقةٌ به. إنّ أيّوب عليه السّلام يضرب به المثل في الصّبر، وإنّ إسماعيل وإدريس وذا الكفل يُنْعَت كلٌّ منهم بأنّه من الصّابرين، وإنّ ذا النّون يونس عليه السّلام الّذي نفد صبره أوّل الأمر فضيّق الله تعالى عليه وعاقبه لمفارقته قومه دون أمرٍ من الله تعالى ينادى في ظلمات بطن الحوت والبحر واللّيل: ﴿لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّى كنت من الظّالمين﴾ وينجّيه الله تعالى من الغمّ جزاء إخلاصه الدّعاء لله تعالى وصبره. ويجمع السّياق أخيراً بين زكريّا ويحيى عليهما السّلام من ناحيةٍ وبين مريم البتول وابنها عيسى عليه السّلام من ناحيةٍ أخرى، جرياً على عادة القرآن الكريم في الجمع بين هذه الكوكبة من المصطفين الأخيار على نحو ما جاء في سورة آل عمران

وسورة مريم. وبعد هذا المرّ السّريع على المنعم عليهم في القسم نتحول إلى شيءٍ من بسط القول.

يقرّر السّياق أنّ الله سبحانه وتعالى آتى موسى وهارون عليهما السّلام الفرقان بمعنى الكتاب السّماوي الّذي يفرق بين الحقّ والباطل ، وهو التّوراة، كما آتاهما الضّياء الّذي يبدّد ظلمات الشّرك والجهل، والعظة للمتّقين من بنى إسرائيل، وذلك في هيئة ما أوحى الله تعالى به إلى موسى عليه السّلام في المقام الأوّل. ومن أهمّ نعوت المتقين أنّهم يخشون ربّهم جلّ وعلا بالغيب الّذي أوحاه الله تعالى إلى موسى وهارون عليهما السّلام وأخبرا به، وهم من السّاعة خائفون وجلون. وهذا القرآن الكريم ذكرٌ مبارك وموعظةٌ طيبّة أنزله الله تعالى الّذي يعلم السّرّ في السّماوات والأرض. أفأنتم له منكرون يا أهل مكّة ويا أيهّا النّاس مع أنّه الغاية في إقناع كلّ عقلٍ بفصوص حِكمه، وإشباع كلّ نفسٍ بلذيذ نظمه. ولا يخفى الكثير من أوجه الشَّبه بين الرّسولين الكريمين موسى عليه السّلام كبير أنبياء بنى إسرائيل، ومحمّد بن عبد الله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين، وكذلك أوجه الشَّبه بين ملابسات دعوة الرّسولين الكريمين. وبعد الحديث عن موسى ومحمّد عليهما الصّلاة والسّلام وهما من أولى العزم من الرسل يتحول الحديث إلى إبراهيم عليه السلام أبى الأنبياء وأحد أولى العزم من الرّسل، وإلى ابن أخيه لوطٍ عليه السّلام. وثمّة الكثير من أوجه الشَّبه بين ملابسات دعوة الرّسولين الكريمين من ناحية، وبين ملابسات دعوتهما ودعوة محمّد بن عبد الله ﷺ من ناحية أخرى. ومن أهمّ أوجه الشَّبه أنّ كلاًّ منهما قد هاجر من بلده بأمر الله تعالى، وأنّ محمّداً ﷺ سوف يأمره الله تعالى بالهجرة من مكّة إلى المدينة.

يقرّر السّياق أنّ ربّ العزّة والجلال قد آتى إبراهيم عليه السّلام رشده وألهمه الحقّ والحجّة على قومه من قبل سنّ البلوغ ومن قبل موسى وهارون ومحمّد عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه. وكان الله تعالى عالماً بإبراهيم عليه

السّلام وبحقيقة نواياه وأقواله وأعماله وبأحقيّته أن يتّخذه عزّ وجلّ خليلا. لقد آتى الله تعالى إبراهيم عليه السّلام رشده حين قال لأبيه وقومه المشركين في إنكار: ما هذه الأصنام الحقيرة الّتي أنتم مقيمون على عبادتها! قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين وإنّا على آثارهم مقتدون ومهتدون! قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في بعد عن الحق مبين. قالوا أجئتنا بالحق وبالجدّ أم أنت من الهازلين اللّاعبين. ولمّا كان عليه السّلام جاداً فيما يقول فإنّه عليه السّلام يخاطبهم بأعلى صوته على رؤوس الأشهاد بأنّ ربّهم هو ربّ السّماوات والأرض الّذي خلقهنّ على غير مثالٍ سابق وبأنّه عليه السّلام من الشّاهدين على ذلك الّذين يؤدّون شهادة الحقّ ويدلون بكلمة الصّدق. ويقسم إبراهيم عليه السّلام بأنّه سوف يكيد لأصنامهم ويمكر بها بعد أن يولّوا مدبرين إلى عيدهم. ودليلاً على تفاهة تلك الأصنام أقبل عليها ضرباً بفأسه الّتي في يمينه عليه السّلام فجعلها قطعاً صغيرةً إلاّ كبير الأصنام فقد علّق في صدره الفأس لعلّ القوم يرجعون إليه ويسألونه عمّا دهى الأصنام. وجاء القوم وهالهم الموقف وقالوا : من فعل هذا الفعل الشّنيع بآلهتنا إنّه لمن الظّالمين حقّا. ولمّا كان عليه السّلام يعيب تلك الآلهة ويسفّه أحلام عابديها في كلّ المواطن هذا إلى تهديده بالكيد لها حينما يذهب عنها عابدوها فقد كان هنالك من قال بأنّه سمع شاباً يذكرها بسوء يقال له إبراهيم، قال أولو السلطة فأتوا به بمرأىً من النّاس لعلّهم يشهدون عقابنا له إن كان هو الفاعل. وحينما سألوه عليه السّلام : ﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم﴾ قال عليه السّلام : ﴿بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ ولمّا كانت الأصنام لا تنفع ولا تضرّ ولا تنطق فإنّ القوم الّذين أيقظ سؤال إبراهيم إيّاهم، نقاء الفطرة في أعماقهم، بأنّ المعبود بحقٍّ هو الله تعالى وحده لا شريك له، قد رجعوا إلى أنفسهم واحتكموا إلى عقولهم فقال بعضهم لبعض : إنّكم أنتم الظّالمون بطرح هذا السّؤال على إبراهيم وصرفه عن الآلهة الّتي تعبدونها . إنّ السّؤال ينبغي أن يوجّه إلى الآلهة إن كانت أهلاً لأن تُعْبَدَ فتُسْأل . ثمّ نُكِس القوم على رؤوسهم، وقلبوا لإبراهيم عليه السّلام ظهر

المجنّ، وحوّلوا الحجّة الّتي له عليه السّلام حجّةً عليه فقالوا : لقد علمت يا إبراهيم أنّ هذه الآلهة الّتي نعبد لا تنطق أصلاً فكيف تطلب منّا أن نسألها، وأنت تعلم سَلَفاً أنّها لا تنطق فكيف تجيب! وهنا يسألهم إبراهيم عليه السّلام في إنكار: أعميت بصائركم فتعبدون من دون الله تعالى مالا ينفعكم شيئاً لو عبدتموه ولا يضرّكم لو هجرتموه. قبحاً لكم ولما تعبدون من دون الله تعالى من أصنام . هلاّ استعملتم عقولكم استعمالاً صحيحاً. وعلى عادة الطّغاة حينما تهزمهم الحجّة في اللّجوء إلى البطش يأمر بعضهم بعضاً بأن يحرّقوا إبراهيم عليه السّلام بالنّار ويلقوه في الجحيم وينصروا آلهتهم بفعل ذلك إن كانوا حريصين على نُصْرة الآلهة! وأراد القوم المشركون بإبراهيم عليه السّلام كيداً فجلعهم الله تعالى الأخسرين بأن قال الله تعالى للنار كوني برداً وسلاماً وأمناً على إبراهيم. وهكذا فقدت النار بأمر الله تعالى أذاها في حق إبراهيم عليه السلام وكذلك فقد البرد أذاه. ونجّى الله تعالى إبراهيم ولوطاً عليهما السّلام من القوم المشركين في أرض العراق وأمرهما بالهجرة إلى أرض الشّام الّتي بارك الله تعالى فيها للعالمين دينيّاً ودنيويّا. ووهب الله تعالى لإبراهيم عليه السّلام إسحاق ابنه، ويعقوب بن إسحاق عليهما السّلام، مزيد فضل منه تعالى، وجعل كلاًّ منهما في حياة إبراهيم عليه السّلام قمّةً في الصّلاح في هيئة النّبوّة الّتي منحهما الله تعالى إياها . وجعلهم الله تعالى جميعاً أئمّة يهدون إلى الحقّ بأمره عزّ وجلّ وأوحى إليهم فعل الخيرات وعمل الصّالحات، وبخاصة إقام الصّلاة عماد الدّين، وإيتاء الزّكاة عماد العبادات الماليّة، وكانوا مخلصين العبادة لله تعالى.

أما لوطٌ ابن اخي إبراهيم عليهما السّلام فقد آتاه الله تعالى الحكم بمعنى القدرة على فصل القضاء، وهذا النّوع من الحكم أحد جوانب الحكمة الّتي هي بعض نعم الله تعالى على من يصطفيهم الله تعالى بنعمة النّبوة. كما آتى الله تعالى لوطاً عليه السّلام العلم اللّدنّيّ في مجال الدّين. وكما نجّاه الله تعالى من القوم الكافرين في العراق الى الأرض التي بارك الله تعالى فيها في الشّام نجّاه من قرية

سدوم الّتي كان يعمل أهلها الخبائث بإتيان الذّكران في أدبارهم، والّتي قلبها الله تعالى رأساً على عقب. إنهم كانوا قوماً سيّئى الأعمال فاسقين خارجين عن سواء السّبيل. لقد أدخل الله تعالى لوطاً في رحمته عزّ وجلّ لأنّ لوطاً كان الغاية في التقوى والصّلاح.

ويتحوّل الحديث إلى نوحٍ عليه السّلام أوّل الرّسل حين نادى من قبل هؤلاء جميعاً فاستجاب له ربّه عزّ وجلّ فنجّاه وأهله من الكرب العظيم والبلاء الشّديد بأن أوحى إليه أن يصنع السّفينة الّتي نجّاه الله تعالى عليها من الغرق ونجّى معه القليلين الّذين آمنوا . وقد حمى الله تعالى نوحاً عليه السّلام ومنعه من القوم الّذين كذبوا بآيات الله عزّ وجلّ. إنهم كانوا قوماً سيّئى العمل فأغرقهم الله تعالى أجمعين، فقد كانوا خارج السّفينة الّتي عملها نوح عليه السّلام بوحيٍ من ربّه عزّ وجلّ. ومعروفٌ أنّ نوحاً عليه السّلام لبث يدعو قومه ألف سنةٍ إلاّ خمسين عاماً وما آمن معه عليه السّلام إلاّ قليل.

ثم يتحوّل السّياق إلى الحديث عن داود وسليمان عليهما السّلام، حين يحكمان في الزّرع إذ رعته ليلاً غنم قومٍ على حين غفلةٍ منهم ومن أصحاب الزّرع. والمطلوب شرعاً من أصحاب الغنم أو الضّرع أن يمنعوا ماشيتهم ليلاً. ومن أصحاب الزّرع أن يحموا أرضهم نهارا. وكان الله سبحانه وتعالى شاهداً لحكم كلٍّ من داود وسليمان عليهما السّلام. لقد حكم داود عليه السّلام أوّل الأمر بأن يأخذ أهل الزّرع الغنم مقابل ما أفسدت وبذلك يكون لأهل الزّرع كلّ شيء ولا يكون لأهل الغنم شيء. وقد فهّم الله تعالى سليمان بن داود عليهما السّلام المسألة وكلاًّ آتى الله تعالى القدرة على الفصل في الخصومات والإصابة في الأحكام والعلم اللّدني في مجال الدّين. لقد أوحى الله تعالى لسليمان عليه السّلام الحكم الصّائب في هذه المسألة بأن يأخذ أصحاب الحرث الغنم طوال المدّة الّتي يُصلح فيها أصحاب الغنم الحرث وأن ينتفعوا من الغنم لبناً وصوفاً وما إلى ذلك حتى يعود الحرث إلى سابق عهده فيعود الغنم إلى أصحابه والحرث إلى أصحابه . إنّ هذا

الحكم إنّما فهمه سليمان عليه السّلام بوحي من ربّه عزّ وجلّ. ومن مظاهر نعم الله تعالى على داود عليه السّلام أنّ الله تعالى سخّر معه الجبال يسبحّن والطّير إذا سبّح وإذا صلّى وإذا قرأ الزبور الّذي أوحاه الله تعالى اليه. لقد كان عليه السلام آية في جلال الصوت وجماله . إن الله سبحانه وتعالى القدير على كلّ شيءٍ هو الفعّال لكلّ ذلك. وكذلك علّم الله تعالي داود عليه السّلام صنع الدّروع لتحمي النّاس في القتال فهو أوّل من عملها من حلق الحديد المثبّتة بمسامير فكانت الدّروع سابغةً ومحكمةً وليّنةً وخفيفة وكانت قبل داود عليه السّلام صفائح من حديد. إنّ واجبكم أيّها النّاس أن تشكروا لله تعالى نعمه السّابغة عليكم بالمبادرة إلى اعتناق دين الإسلام لله ربّ العالمين وإخلاص العبادة لله تعالى.

ومن مظاهر نعم الله تعالى على سليمان عليه السّلام أنّ الله تعالى سخّر له الرّيح عاصفةً تارةً ورخاءً أخرى تجرى بأمره إلى أرض الشّام الّتي بارك الله تعالى فيها دينيّاً ودنيويّاً وكانت قاعدة ملكه عليه السّلام . وكان ربّ العزّة قد استجاب دعاء سليمان عليه السّلام بأن يهبه عزّ وجلّ ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده. إنّ الله سبحانه وتعالى عليمٌ بكلّ شيء. ومما سبق علم الله تعالى إليه استحقاق سليمان عليه السّلام لكلّ النّعم الّتي وهبه الله تعالى إيّاها. وسخّر الله تعالى لسليمان عليه السّلام من الشّياطين من يغوصون له في أعماق البحار ويستخرجون المعادن الثّمينة ومن يعملون له عملاً سوى ذلك كالمحاريب والتماثيل والجفان والقدور. وكان الله سبحانه وتعالى حافظاً لأولئك الشّياطين ومحاسباً ومجازياً.

ثمّ يتحوّل السّياق إلى الحديث عن كوكبة من المنعم عليهم يتحلّون بالصّبر من بين النّعوت الّتي يتحلّون بها. إنّ السّياق يأمر المصطفى ﷺ بأن يذكر أيّوب عليه السلام الذي يضرب به المثل في الصبر والذي ابتلاه الله تعالى بالضّرّ في جسده فلم يسلم سوى قلبه ولسانه عليه السلام. إن أيوب ينادى ربّه عزّ وجلّ بأنّ الضّرّ قد مسّه وأنت يا الله أرحم الرّاحمين فارحمني. لقد استجاب الله تعالى له فكشف ما به من ضرّ ومرض وآتاه الله تعالى أهله الّذين فقدهم وآتاه مثلهم معهم

رحمةً من عنده عزّ وجلّ وعظةً للعابدين الله تعالى حقّ العبادة. ومن هؤلاء الّذين يتّسمون بالصّبر إسماعيل وإدريس وذو الكفل عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه. لقد أدخلهم عزّ وجلّ في رحمته لأنهم من الصّالحين الّذين بلغوا الغاية في الصّلاح والتّقوى. أمّا ذو النّون وصاحب الحوت يونس عليه السّلام فإنّه إن كان قد نفد صبره فغضب على قومه المصريّن على الكفر والتكذيب ففارقهم واتجه إلى البحر وركب السّفينة دون إذنٍ من ربّه عزّ وجلّ فقد كان آية في إخلاص العبادة لله تعالى حينما ضيق اللهُ تعالى عليه وحبسه في ظلمات بطن الحوت والبحر واللّيل. لقد ظن يونس عليه السّلام أوّل الأمر أنّ الله تعالى لن يضيق عليه حينما غضب على قومه وأنذرهم عذاب الله تعالى ثمّ فارق قومه بدون أمرٍ من الله تعالى له بالمفارقة. وإنّه عليه السّلام حينما كان في ظلمات بطن الحوت واللّيل والبحر نادى من أعماقه ربّه عزّ وجلّ : ﴿لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظّالمين﴾ فاستجاب الله تعالى دعاءه ونجّاه من الغمّ الّذي هو فيه. وفي مثل هذه الطريقة من الإنجاء ينجي الله تعالى المؤمنين الّذين يلجأون إلى الله تعالى في الشدائد.

ثم يجمع السّياق بين زكريّا ويحيى عليهما السّلام من ناحية، وبين مريم البتول وعيسي ابن مريم عليه السّلام من ناحية أخرى، جرياً على عادة القرآن الكريم في الجمع بين هذه الكوكبة من المنعم عليهم لدلالة ولادة كلّ من يحيى عليه السّلام من شيخ كبير وعجوز عقيم، ودلالة ولادة عيسى عليه السّلام من دون أب، على القدرة المطلقة للذّات العليّة. ولا يخفى أنّ الآية في حقّ عيسى عليه السالم أشد غرابةً منها في حق يحيى عليه السّلام، وإن كانت الآيتان من وادٍ واحد، وإن كانت الآيتان وكلّ الآيات سواءً في حقّ الّذات العليّة . إنّ السّياق يأمر المصطفى ﷺ أن يذكر زكريّا عليه السّلام إذ نادى ربّه عزّ وجلّ ربّ لا تتركني وحيداً دون ولد من صلبي وأنت خير الوارثين. لقد كان عليه السلام يخشى على الدّين ألاّ يقومَ أقرباؤه بحقّه كما يجب. وقد استجاب الله تعالى له ووهبه يحيى

عليه السّلام، وفي ذلك صلاح زوجه العاقر، وأصلح له زوجه لساناً وطبعا. إنّهم جميعاً كانوا يسارعون في الخيرات ويدعون الله تعالى راغبين في رحمته خائفين من عذابه، وكانوا خاشعين له عزّ وجلّ مخبتين. أمّا مريم البتول الّتي أحصنت فرجها وحمته من أدنى سوء فإنّ الله سبحانه وتعالى نفخ فيه من روحه عزّ وجلّ بواسطة جبريل عليه السّلام الّذي نفخ في جيب درعها فحملت بعيسى عليه السّلام من غير أب. وقد جعلها الله تعالى وابنها عيسى عليه السّلام آيةً للعالمين من الإنس والجنّ والملائكة، دالّة على القدرة المطلقة لله تعالى الّذي لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، والّذي يقول لكلّ شيءٍ أراده : كن فيكون . لا معقّب لحكمه عزّ وجلّ ولا رادّ لقضائه جل وعلا.

(٥)

(ثواب الّذين يتّبعون الرّسول الكريم عظيم، وعذاب الّذين يتولّون عنه أليم، وليس على الرّسول إلاّ البلاغ المبين)

الآيات (٩٢ ـ ١١٢)

بعد حديث القسم السّابق عن بعض معاناة كوكبةٍ من المصطفين الأخيار وصفاتهم، بقصد تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ وأفئدة الفئة المؤمنة القليلة العدد آنذاك في تلك الفترة المكيّة المبكّرة يتحوّل السّياق للغاية ذاتها، إلى الحديث عن بعض قضايا الأمم وملابسات دعوة الرّسل عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين. إنّ ربّ العزة والجلال لمّا كان قد أرسل جميع المرسلين والنّبيّين بدين الإسلام لله تعالى ربّ العالمين من أجل إيجاد الأمّة الواحدة المسلمة لله تعالى ربّ العالمين فإنّ السّياق يبدأ بالإيماء إلى هذه الحقيقة. إنّ هذه أمتكم أمّة واحدةً أيّها النّاس وإنّ هذه ملتكم ملّةً واحدة وديناً واحداً بإفراد الله تعالى بالعبادة وإن اختلفت المناهج

والشرائع الموصلة إلى هذه الغاية الحميدة الواحدة . إنّ الغاية هي عبادة الرّبّ الواحد الّذي لا شريك له. والعجيب في شأن الأمم أنّها تتقطّع شيعاً وتتمزّق أحزاباً منشقّةً على الفئة النّاجية المسلمة لله تعالى ربّ العالمين. والعجيب أنّ كلاًّ من هذه الشّيع والأحزاب فرح بما عنده معجبٌ برأيه منصرفٌ عن الوحي وكأنّه يجهل أنّ الجميع راجعٌ إلى الله تعالى يوم القيامة للحساب والجزاء. ويلاحظ أنّ هذه المعاني تتكرّر في الآيتين الكريمتين الثانية والخمسين والثّالثة والخمسين من سورة المؤمنون.

وبشأن المؤمنين الّذين استجابوا لله تعالى ولرسوله ﷺ فآمنوا وعملوا الصّالحات لا يُنْقَصون من ثواب أعمالهم الصّالحة شيئاً، وتلك الأعمال تكتبها الملائكة الموكلة بذلك . أما الكافرون فإنّ السّياق يقرّر في حقّهم حكم الله تعالى وقضاءه. إنّه واجبٌ على أهل قريةٍ أهلكها الله تعالى أنّهم لا يرجعون إلى الدنيا مطلقا.

وهكذا ينقسم النّاس فريقين. الفريق الّذي يتّبع الرّسول الكريم، والفريق الّذي يعرض عنه. فريقٌ في الجنّة بإذن الله تعالى وفريقٌ في السّعير. ويظلّ الحال كذلك حتّى تظهر أشراط السّاعة وعلاماتها. ومن هذه الأشراط والعلامات فتح سدّ يأجوج ومأجوج الّذين أشارت إليهم سورة الكهف والّذين يأتون مسرعين من كلّ مرتفعات الأرض ومن باب الأولى منخفضاتها . ويأمر الله تعالى عيسى عليه السّلام أن ينحاز بالمسلمين ناحية الطّور كما جاء في الحديث الصّحيح ويدعو عيسى عليه السّلام والمؤمنون على يأجوج ومأجوج المفسدين في الأرض ويستجيب الله تعالى الدّعاء ويهلك القوم عن بكرة أبيهم ويستأصل شأفتهم ويطهّر الأرض بالمطر من آثارهم ثمّ تقوم السّاعة. ويعبّر السّياق عن السّاعة بالوعد الحقّ. وحينما تقوم السّاعة إذا هي شاخصةٌ أبصار الّذين كفروا فلا تطرف لهول الموقف ويقولون يا ويلنا ويا هلاكنّا قد كنّا في غفلةٍ عن هذه الحقيقة بل كنّا ظالمين بشركنا. ويقال لأولئك المشركين إنكم وما تعبدونَ من دون الله وقود جهنّم وحطب النّار الّتي أنتم

لها واردون وداخلون. إنّ هؤلاء المعبودين لو كانوا آلهة على الحقيقة ما دخلوا النّار مع عابديهم وكلٌّ من العابدين والمعبودين خالدون في نار جهنّم لهم فيها زفير موصول، وخروج نَفَسٍ متتابع، دليلاً على المكابدة المستمرّة الّتي يعانونها. ويقترن بالزّفير وخروج النفس الشّهيق ودخول النّفس. إنّ زفير القوم وشهيقهم الغاية في المشقّة والعناء. وهم بسبب الشّقاء الّذي يكابدونه وشدّة غليان النّار لا يسمعون شيئاً.

أمّا الّذين سبقت لهم من الله تعالى السّعادة بدخول الجنّة فإنّهم عن النّار مبعدون. لا يسمعون صوتها ولا يحسّون بها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون في الجنة. لا يحزنهم الفزع الأكبر وصيحة إسرافيل وتتلقّاهم ملائكة الرّحمة التي تقول لهم: هذا يومكم الّذي كنتم توعدونه بدخول الجنّة الّتي فيها مالا عينٌ رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، كما جاء في الحديث عن الصّادق المصدوق ﷺ.

وفي يوم القيامة يطوى الله تعالى السماء كطيّ الصّحيفة على المكتوب عليها. وكما بدأ الله تعالى الخلق يعيده. وعداً عليه عزّ وجلّ حقّاً وصدقا. إنّه عزّ وجلّ القدير الفعّال لما يريد الّذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

وقد كتب الله تعالى في كلّ الكتب السّماويّة من بعد الذّكر وأمّ الكتاب واللّوح المحفوظ أنّ الأرض يرثها عباد الله تعالى الصّالحون، يستوى في ذلك أرض الجنّة الخالصة للّذين آمنوا، وأرض الدّنيا حينما يستمسك المسلمون بتعاليم القرآن الكريم وسنّة أشرف المرسلين عليهم صلوات ربّ العالمين وسلامه أجمعين. وهكذا يتحقّق بإذن الله تعالى للمؤمنين الصالحين الحياة الطّيبة في الأولى والآخرة. إنّ في هذا البيان القرآنيّ لبلاغاً وافياً وبياناً شافياً لقوم يعبدون الله تعالى حقّ العبادة.

ولمّا كان محمد بن عبدالله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين وإمام المتقين وزعيم أولى العزم من الرسل الّذين يعتبر الصبر من أهم نعوتهم فإنّ السّياق يخصّه عليه الصّلاة والسّلام بالحديث في نهاية السّورة المكّيّة الكريمة. إنّ الله سبحانه

وتعالى ما أرسل محمّداً ﷺ إلاّ رحمةً للعالمين وللنّاس أجمعين لإخراجهم من ظلمات الشّرك والجهل إلى نور الإيمان والعلم. ومعروف أنّ الإيمان الصحيح والعلم النافع يهديان بإذن الله تعالى إلى جنّات النّعيم. ويؤمر عليه الصّلاة والسّلام أن يقول لقومه المكّيّن في المقام الأول: إنّما يوحى إليّ أنّما إلهكم إلهٌ واحدٌ لا شريك له فهل أنتم مسلمون! والمعنى أسلموا تسلموا قبل فوات الأوان. فإن أعرضوا فإنّما عليك يا محمّد البلاغ فقل أعلنتكم وأعلمتكم حتّى يستوي علمنا وعلمكم أنّنا نحن المسلمين لكم عدوٌّ وأنتم لنا عدوّ. وما أدري أقريبٌ أم بعيدٌ ما توعدون من العذاب. إنّ الله سبحانه وتعالى يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون وتسرّون. وإنّ هذا الإمهال من الله تعالى لكم والنّعيم الّذي تتقلّبون فيه لعلّه فتنةٌ من الله تعالى واختبار واستدراجٌ لكم ومتاعٌ إلى حين انقضاء آجالكم. وكلّ آتٍ قريب. وتجاه إصرار القوم على الكفر والتّكذيب والاستهزاء تُختم السّورة الكريمة بقول النّبيّ ﷺ ودعائه ربَّه عزّ وجلّ: ياربّ احكم بيننا بالحقّ واقض بالفصل. إنّ ربّنا هو رحمن الدّنيا والآخرة الّذي نستعين به وحده لا شريك له على ما تصفونه به أيّها المشركون من صفات الكذب، التي ينبغي تنزيهه عزّ وجلّ عنها.

روى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنّه قال في سور بني إسرائيل أو الإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء هنّ من العتاق الأُوَل. وهن من تلادي والعتاق بكسر المهملة وتخفيف المثناة جمع عتيق وهو القديم، وتلادى بكسر المثنّاة وتخفيف الّلام أي مما حفظ قديماً. ومراد ابن مسعود أنهنّ من أول ما تعلّم من القرآن في مكّة المكرّمة قبل الهجرة(١).

---

(١) انظر فتح الباري ٨/ ٤٣٥ حديث رقم ٤٧٣٩ و ٨/ ٣٨٨ حديث رقم ٤٧٠٨ والشّرح المذكور لابن حجر ٨/ ٣٨٨

التّفسير

(١)

(في هذا الكتاب العزيز شرفكم أيّها الناس فآمنوا به وبالرّسول الكريم قبل حلول العذاب)

الآيات (١ ـ ١٥)

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

ترتيبها ٢١ — آياتها ١١٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾
مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ
يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ
تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ
ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ
﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ
﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ
ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا
لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ
ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾
لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

وهم في غفلةٍ معرضون : وهم في الدّنيا عمّا الله فاعل بهم من ذلك يوم القيامة وعن دنوّ محاسبته إيّاهم منهم واقترابه لهم في سهوٍ وغفلة(١).

محدثٍ: جديدٍ إنزاله(٢).

أفتأتون السّحر وأنتم تبصرون : قال بعض الظّالمين لبعض : أتقبلون السّحر وتصدّقون به وأنتم تعلمون أنه سحر يعنون بذلك القرآن(٣).

بل قالوا : ما صدّقوا بحكمة هذا القرآن ولا أنّه من عند الله ولا أقرّوا بأنّه وحيٌ أوحاه الله إلى محمّد ﷺ بل قال بعضهم(٤).

أضغاث أحلام : الضّغث قبضة رَيْحان أو حشيش أو قُضْبان وجمعه أضغاث. وبه شُبِّه الأحلام المختلِطة الّتي لا يتبيّن حقائقُها(٥).

فاسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون : إن أنكرتم وجهلتم أمر الرّسل الّذين كانوا من قبل محمّد فلم تعلموا أيّها القوم أمرهم، إنساً كانوا أم ملائكة، فاسألوا أهل الكتب من التّوراة والإنجيل ما كانوا، يخبروكم عنهم(٦).

وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطّعام: لم نجعلهم ملائكةً لا يأكلون الطّعام ولكن جعلناهم أجساداً مثلك يأكلون الطّعام(٧).

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ٢

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ١٧٣

(٣) تفسير الطّبرى ١٧/ ٣

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ٣

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «ضغث» ٢٩٧

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ٤

(٧) تفسير الطّبرى ١٧/ ٥

وما كانوا خالدين: ولا كانوا أربّاباً لا يموتون ولا يفنون [1].

لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم : لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه شَرَفُكُم [2].

يقرّر السّياق أنّ يوم القيامة قد اقترب وأنّ حساب النّاس قد دنا. وعلى الرّغم من ذلك فإنّ النّاس، وفي مقدمتهم كفّار مكّة، في غفلتهم سادرون، وعن الحقّ معرضون. ما يأتي كفّار مكّة ومن شاكلهم من الكافرين، من ذكرٍ من ربّهم عزّ وجلّ محدث، ومِنْ قرآن كريم جديد حديث عهدٍ بالسماء، إلاّ استمعوه بآذانهم دون اهتمام به ووعي له، وهم يلعبون بالإقبالِ على الدّنيا والإهمال للآخرة. لاهية قلوبهم عن الحقّ، مشغولة بالباطل، مصرّةً على الكفر والاستهزاء، يقول بعض الظّالمين لبعض: هل محمّدٌ إلاّ بشرٌ مثلكم فكيف يزعم أنّه رسولٌ أرسله الله تعالى وأوحى إليه. أتتّبعونه وتؤمنون بسحره وأنتم تعلمون يقيناً أنّه ساحر وأنّ ما جاء به السّحر ﴿كبرت كلمةً من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا﴾ [3].

وتجاه هذا الافتراء يجيبهم الرّسول الكريم ﷺ قائلاً: إنّ ربّي عزّ وجلّ يعلم كلّ قول في السّماء والأرض وكلّ سرٍّ فيهما، وإنّ ربّي عزّ وجلّ الّذي أوحى إليّ بهذا الكتاب العزيز هو السّميع لكلّ قول، العلم بكلّ فعل، ومن ذلك قولكم أيّها الكافرون وفعلكم.

إنّ هؤلاء الكافرين الظّالمين لم يؤمنوا ولم يستقرّوا على قول بل قالوا عن القرآن الكريم هو أخلاط أحلام، بل تقوّله محمّد وادّعى أنّه كلام الله تعالى، بل محمّد شاعر، وليس هذا الكلام سوى شعر شاعرٍ وخيالاته. فليأتنا محمّد بدلاً من هذا الكلام بآية محسوسةٍ ومعجزةٍ ماديّةٍ ملموسة كناقة صالح وآيات موسى وعيسى عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه.

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ٥

(٢) تفسير الطّبرى ١٧/ ٦

(٣) سورة الكهف ٥

ولّما كان المكذّبون السّابقون، الّذين طلبوا من رسل الله تعالى إليهم آيات محسوسةً بعينها، قد أصرّوا على تكذيبهم بعد تحقّق الآيات الّتي اقترحوا، فأخذهم الله تعالى بالعذاب، جرياً على سنّته عزّ وجلّ أن يهلك المصرّين على التّكذيب، ولّما كان كفّار مكّة ليسوا بدْعاً من الأمم فقد علم الله تعالى أنّهم سوف يصرّون على التّكذيب بعد تحقّق الآيات، فقد تحوّل السّياق إلى الحديث في هذا المعنى. إن كلّ أهل القرى السّابقين لم يؤمنوا بعد تحقّق الآيات فكيف يؤمن كفّار مكة وحدهم بعد تحقّق الآيات التي اقترحوا. ولّما كان إصرار كفّار مكّة على التكذيب بعد تحقّق ما اقترحوا من الآيات يعنى هلاكهم أسوةً بالسّابقين ولكن الله تعالى لم يرد هلاكهم فإنّ ربّ العزة لم يلبّ طلبات كفّار مكّة أن يأتي ﷺ بآيةٍ غير القرآن الكريم.

ولّما كان كفّار مكّة يرون أنّ الرّسالة تليق بملكٍ من الملائكة لا بواحدٍ من البشر، ولّما كانت الحكمة من إرسال الرّسول واحداً من البشر قد غابت عنهم وهي أن يأنسوا به ويفهموا عنه ولذلك كان كلّ الرّسل رجالاً من البشر، فقد نبّه السّياق كفّار مكّة على ذلك. إنّ ربّ العزّة لم يرسل قبل محمّد ﷺ إلاّ رجالاً من أهل القرى يوحى عزّ وجلّ إليهم. وإنّ كفّار مكّة إن كانوا لا يعلمون أنّ الرّسل ينبغي أن يكونوا من البشر وليس من الملائكة في إمكانهم أن يسألوا، إن شاءوا، أهل العلم بالتّوراة والإنجيل من اليهود والنّصارى، لأنّ الكافرين يصدّقون اليهود والنّصارى ولا يصدّقون المؤمنين. إنّ الله سبحانه وتعالى جعل كلّ المرسلين أجساداً يأكلون الطّعام وما جعلهم ملائكة لا يأكلون الطّعام، وأجرى عليهم الموت الّذي أجراه على سائر الخلق، ولهذا لم يكونوا خالدين. وليس محمدٌ إلاّ واحداً من الرسل يجري عليه ما يجري على سائرهم. وقد صَدَق الله تعالى المرسلين السّابقين فأهلك المصرّين على التّكذيب بعد تحقّق الآيات المقترحة باستثناء قوم يونس عليه السّلام الّذين آمنوا وكانت توبتهم نصوحا(١). إنّ ربّ العزة لم يشأ إهلاك كفار

(١) سورة يونس ٩٨

مكة لذا لم يستجب إلى طلبهم آيات محسوسة معينة لأن الله تعالى اصطفى حبيبه ﷺ بالقرآن الكريم المعجزة البيانية الكبرى الخالدة الأشد نفعاً لكفار مكة وللناس أجمعين.

إن السياق يخاطب الناس جميعاً ويقول لهم في أسلوب التوكيد القوي بأن رب العزة والجلال قد أنزل إليهم كتاباً عزيزاً فيه ذكرهم وعزّهم وشرفهم ومجدهم إن هم آمنوا به واتّبعوه. هلاّ استعمل النّاس عقولهم استعمالاً صحيحاً فصدّقوا محمّداً ﷺ واتّبعوا النور الّذي أُنْزِل معه عليه الصّلاة والسّلام.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾
لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ
دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾

وكم قصمنا من قرية : وكثيراً قصمنا من قرية. والقصم أصله الكسر، يقال منه : قصمت ظهر فلان إذا كسرته. وانقصمت سنّه إذا انكسرت. وهو ههنا معنيٌّ به أهلكنا(١). وحطمنا وهشمنا(٢)..

فلمّا أحسّوا بأسنا : فلمّا أدركوا بحواسّهم(٣). وعاينوا عذابنا قد حلّ بهم ورأوه ووجدوا مسّه(٤).

---

(١) تفسير الطّبري ٦/١٧

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «قصم» ٤٠٥

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «حس» ١١٦

(٤) تفسير الطّبري ٦/١٧

إذا هم منها يركضون : يقول : إذا هم ممّا أحسّوا بأسنا النّازل بهم يهربون سراعاً عجلى يعدون منهزمين(١).

لعلكم تُسْألون : عن قتادة: لعلّكم تسألون من دنياكم شيئاً استهزاءً بهم(٢).

حتّى جعلناهم حصيداً : حتّى قتلهم الله فحصدهم بالسّيف كما يحصد الزّرع ويستأصل قطعاً بالمناجل(٣).

خامدين : هالكين قد انطفأت شرارتهم وسكنت حركتهم فصاروا هموداً كما تخمد النّار فتطفأ(٤).

ما أكثر القرى التي أهلك الله تعالى أهلها الظّالمين وأوجد بعدهم أقواماً آخرين يخلفونهم ويسكنون في مساكنهم ويتبينون أخذ الله تعالى الأليم الشّديد لأولئك الظّالمين كي يعتبروا ويتعظوا. فلمّا ذاق الظّالمون العذاب وأيقنوا أنّ الهلاك محدقٌ بهم إذا هم من مساكنهم يفرّون ومن خوف الموت يركضون لا يلوون على أحد. وعلى سبيل الاستهزاء بالقوم تقول لهم ملائكة العذاب: لا تركضوا وارجعوا إلى النعيم الّذي تقلبتم فيه، والّترف الّذي نعمتم به، والقصور المشيدة، والمساكن المتقنة الصنع، لعل طالبي الحاجات يعاودون طرق أبوابكم ويسألونكم شيئاً من متاع الدنيا الرخيص، وزهرتها السّريعة الذّبول، كما كان يفعل السائلون من قبل نزول العذاب بساحتكم.

ولا يملك الظّالمون وقت نزول العذاب بهم إلاّ أن ينادوا بهلاكهم وإلاّ أن يعلنوا الاعتراف بارتكابهم الظلم والاستحقاق للعذاب. ويظلّ الظّالمون يستغيثون

(١) تفسير الطبري ١٧/٦

(٢) تفسير الطّبري ١٧/٧

(٣) تفسير الطّبري ١٧/٧

(٤) تفسير الطّبري ١٧/٧

ولا مجيب، ويعترفون بأخطائهم الشّنيعة بعد فوات الأوان، ويعلنون التوبة ولا قبول لها، حتى يهلكوا عن بكرة أبيهم ويصيروا كالزّرع المحصود بالمناجل، وكالنّار الّتي غدت أثراً بعد عين.

(٢)

(الله تعالى خالقُ السّماوات والأرض، وكلّ من فيهما خَلْقُه فاعبدوه)

الآيات (١٦ ـ ٢٩)

وَمَا خَلَقْنَا
ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا
لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ
عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ
﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ
﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ
ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ
وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ
بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم
بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ
﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ
جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

لو أردنا أن نتّخذ لهوا : الّلهو ما يشغل الإنسان عمّا يعنيه ويهمّه ويعبَّر عن كلّ ما به استمتاع باللّهو [١]. لو أردنا أن نتّخذ لهوا، نساءً وولدا[٢].

لاتّخذناه من لدنّا إن كنّا فاعلين : لاتّخذناه من عندنا ولا خلقنا جنّةً ولا ناراً ولا موتاً ولا بعثاً ولا حسابا[٣]. أي ما كنّا فاعلين. وقال مجاهد كلُّ شيء في القرآن إن هو إنكار[٤].

بل نقذف : القذف الرّمي البعيد[٥].

فيدمغه : فيهلكه كما يدمغ الرّجل الرّجل بأن يشجّه على رأسه شجّةً تبلغ الدّماغ. وإذا بلغت الشجّة ذلك من المشجوج لم يكن له بعدها حياة[٦]. والدّمغ كسر الدّماغ[٧]. والدّامغة من الشِّجاج الّتي تَهْشِمِ الدّماغ حتّى لا تبقي شيئاً وهي أسوأ الشِّجاج العشر[٨].

فإذا هو زاهق: فإذا هو هالك مضمحل[٩].

ولا يستحسرون: ولا يعيون[١٠]. ولا يتعبون ولا يملّون[١١].

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «لهى» ٤٥٥

(٢) تفسير الطّبري ٨/١٧

(٣) تفسير الطّبري ٨/١٧

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ١٧٥ وانظر تفسير الطّبري ٨/١٧

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «قذف» ٣٩٧(١) تفسير الطّبري ٨/١٧

(٦) تفسير الطّبري ٨/١٧

(٧) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «دمغ» ١٧٢

(٨) انظر لسان العرب : «دمغ»

(٩) تفسير الطّبري ٩/١٧

(١٠) تفسير الطّبري ٩/١٧

(١١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٧٥

لا يفترون: لا يسأمون فيها[١]. والفتور: سكونٌ بعد حدّة، ولينٌ بعد شدّة، وضعفٌ بعد قوّة[٢].

هم يُنْشِرون: يحيون الأموات[٣].

هذا ذكر من معي: أي أمتي وهو القرآن[٤].

وذكر من قبلي: من الأمم وهو التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله[٥].

يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم: يعلم ما بين أيدى ملائكته ما لم يَبْلُغوه ما هو وما هم فيه قائلون وعاملون. وما خلفهم: يقول: وما مضى من قَبْل اليوم ممّا خلّفوه وراءهم من الأزمان والدّهور ما عملوا فيه. قالوا: ذلك كلّه محصًى لهم وعليهم لا يخفى عليه من ذلك شيء[٦].

يقرّر السّياق أنّ ربّ العزة والجلال منزل القرآن الكريم خالق السماوات والأرض ما خلق السّماوات والأرض وما بينهما بقصد العبث واللّعب، ولكن من أجل أن يعمل النّاس الصّالحات كما بيّنها رسل الله تعالى كي يثابوا عليها يوم الجزاء وإلاّ كان العقاب عسيراً. وسبق أن قرّر السّياق أنّ الله سبحانه وتعالى قد أنزل إلى النّاس القرآن الكريم الّذي فيه عزّهم في الأولى والآخرة. إنّ الأمور جدٌّ كلّها، وإنّ من الأدلّة على ذلك ما قرّره السياق بأنّ ربّ العزّة والجلال لو أراد أن يتخذ لهوا واستمتاعاً، كما زعم الكاذبون بأنّ الله تعالى قد اتّخذ صاحبة ووالدا، لاتخذه عزّ وجلّ ممّن عنده من الملائكة والحور العين، ولكنّه عزّ وجلّ لم يرد فلم

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «فتر» ٣٧١

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ١٠

(٤) الجلالين

(٥) الجلالين

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ١٢

يفعل. إنّ الّذي يريده عزّ وجلّ أن يُفْرَدَ بالعبادة لأنّه واحدٌ أحدٌ فردٌ صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ولهذا يقذف عزّ وجلّ بالحقّ من القرآن ودين الإسلام على الباطل من الكفر والشّيطان فيهشم دماغه فإذا الباطل زاهق والشيطان صاغر. أمّا المصرّون على كفرهم وشركهم وزعمهم أنّ الله تعالي قد اتّخذ صاحبةً وولداً فانّ لهم الويل ممّا يصفون والهلاك ممّا يفترون على الله تعالى من كذب. ويلاحظ أننا أمام أسلوب الالتفات في القول: ﴿ولكم الويل ممّا تصفون﴾ وكأنّ هؤلاء المفترين على الله تعالى الكذب يؤتى بهم ويخاطبون على رؤوس الأشهاد بهذا القول. وليس وراء مثل هذا التّهديد من مزيد. وإنّ الله تعالى الّذي خلق السّماوات والأرض هومدبّرهما، فله عزّ وجلّ كلّ من في السّماوات ومن في الأرض. وإنّ الملائكة الكرام الّذين عنده عزّ وجلّ لا يستكبرون عن عبادته عزّ وجلّ ولا يستنكفون، ولا يستحسرون عن عبادته ولا يقصّرون. إنهّم يسبّحونه عزّ وجلّ اللّيل والنّهار لا يَفْتُرون ولا يتعبون.

ولا يكاد العجب ينتهي من عمى بصيرة المشركين رغم كلّ هذه الآيات والبراهين ولهذا يسأل السّياق في إنكار: هل اتّخذ أولئك المشركون آلهةً مصنوعةً من أحجار الأرض ومعادنها وما إلى ذلك لأنّ تلك الآلهة المزعومة تحيي الموتى وتبعثهم من القبور خلقاً جديداً. إنّها مجتمعةً لا تخلق ذبابةً واحدة، فكيف يأتي أصحاب العقول تلك الحماقات؟ لأنّهم عطّلوا عقولهم السخيفة أصلاً، وإلاّ فإنّ مَنْ لديه أدنى مُسْكة من عقل وبقيّة من فكرٍ يدرك ما قرّره السّياق مِنْ أنّه لو كان في السماوات والأرض آلهةٌ سوى الله تعالى لفسدتا، فتنزيهاً لله تعالى ربّ العرش العظيم عمّا يفترون على الله تعالى من كذب. إنّ الله تعالى لأنّه الظاهر، فليس فوقه شيءٌ، لا يُسْأل عمّا يَفْعَل، وكل ما سواه عزّ وجلّ مسئولٌ لأنّه عزّ وجلّ ليس كمثله شيءٌ وهو السّميع البصير.

ويسأل السّياق كذلك في إنكار: أم اتّخذ أولئك المشركون آلهةً من دون الله تعالى لأنّ لديهم حجةً وبرهانا! قل يا محمّد لهم: هاتوا برهانكم وقدّموا دليلكم